أشكال التعبير الأمازيغي الشفوي والكتابي : (محاضرة الأسطورة)

تمهيد:

تشكل الأشكال التعبيرية للأدب الأمازيغي الركيزة الأساسة للذاكرة الجماعية للأدب الجزائري ، والتي تساهم في الحفاظ على تماسك مقومات الأمة الجزائرية في كل مراحلها التاريخية ،و لقد عرفت الإنتاجات الأدبية الأمازيغية التقليدية تداولا واسعا في الأوساط الاجتماعية،وحظيت بمكانة بارزة في حقل الإبداعات الشفوية منذ القدم،على الرغم من أنّها دأبت على نهج الشفوية في نقل إرثها المعرفي عبر حلقات تعاقب الأجيال،فإنّ الذاكرة الجماعية لأبنائه لازالت تختزن-إلى حد اليوم-كمّا هائلا من النصوص الأدبية خاصّة ما تعلق منها بالأسطورة، الأمثال والحكم ،و التي تعكس بجلاء ذلك الاهتمام البالغ الذي كان يوليه المجتمع الجزائري العريق للأشكال التعبيرية ،كإحدى الأسس المعرفية في بناء صرحه الحضاري،بامتداداته الإقليمية والزمنية.

إنّه و بتفتّحنا على ثقافات الوطن المغاربي واطّلاعنا على أدبيات مختلف مناطقه،نجد أنّ ثقافة المجتمع الجزائري القديم ،تشاطر ثقافة ذات اتّساع جغرافي مذهل -Culture supra nationale،فأمثاله وحكمه نجدها في كتب روائيين من مناطق جغرافية بعيدة عنه وثروته اللغوية متداولة في قمم جبال لم تصلها وسائل الاتصال وهذا ما يخلق في أنفسنا إكبارا وإجلالا لثقافة جدودنا التي لم أتخيّل يوما بأنّ وجدانهم كان يعي ثقافة تجاوزت حدود جغرافيتهم وأضحيت أراها كنزا ثمينا يمشي على قدميْن حريّ بنا -أكاديميين وباحثين- استغلاله والإفادة منه حفاظا على هوية ماهي إلّا أصل من أصول وَحدتنا الوطنية.

إنّ **الأدب الأمازيغي** في الجزائر عرف تنوعا كبيرا شكلا ومضمونا،لما أدخله من ميزات و خصوصيات فنية ،وما كان له من انجذاب كبير نحو الواقع يصوّره ويحاكي أشكال تواجد الإنسان فيه وتكيّفه مع كلّ صروف الحياة ومتغيّراتها ، إذ له طريقته في التعبير عن الفكر بحثا عن الوعي التجديدي الذي يلامس الأسئلة الاجتماعية والفكرية للمجتمع ولو بأشكال شعبية وهذا ما يجعله لا يخضع لا لشكل ولا لمضمون معيّنين .

ويتعيّن علينا الحديث عن بعض ملامح الأدب الأمازيغي منذ عصور غابرة،وكلّ ماكان يرافقه من أشكال تعبيرية ،كلّ ما يمكن القول في وصفها إنّها بسيطة عفوية تجري على طريق الشفوية تعكسها العادات الاعتباطية. هذه الملامح هي مايمنح للأدب الأمازيغي خصوصيته وأصالته التي تجعله نسيج وحده،فلا يتقاطع مع أشكال سابقة له أو محاورة له، وستجمع هذه المداخلة بعضا من أهم هذه الأشكال التعبيرية لعلّ أبرزها الحكم والأمثال والأسطورة الأمازيغية ، والتي نجدها تمثل مواضيع رئيسة لأشكال ماقبل مسرحية للمسرح الأمازيغي الجزائري وكذا نجد بعضا منها متناثرا إما في نصوص شعرية،أو في بين ثنايا الحكايات الموجهة للأطفال على لسان الجدة.

أولا: تلقي الأسطورة الأمازيغية في الأدب الشعبي الجزائري: يهدف هذا الجزء وضع بعض المقاربات الأولية للفكر الميثي الأمازيغي التقليدي في نظام طقوسه ورؤيته للعالم وكيفية تلقيه على مستويات كثيرة " **لتقديم صورة عن كيفية تمثل الأمازيغ للعالم،وتصوراتهم عن خلق السماء والأجرام،وتفسيرهم لبعض الظاهر الجوية وللعالم الخفي وبعض الكائنات الميثية التي تسكن متخيلهم من خلال الميثات والحكايات ...وما يمكن اعتباره انتروبوغونيات أمازيغية تتمحور حول ظهور الإنسان ونشأة المجتمع البشري ودور المرأة فيه وتصورات الأمازيغي عن الزمن الميثي والماضي ، ونشأة الحيوانات ورمزيتها والأساطير المرتبطة بها"**[1]

وعن تعريف الأسطورة يمكن القول إن لها عديد التعاريف،ذلك أن الدارسين والمختصين يختلفون في محدداته،قال الفيلسوف الأمازيغي "القديس أغسطين• "**إنني أعرف جيدا ماهو بشرط ألا يسألني أحد عنه،ولكن إذا سئلت وأردت الجواب،فسيعتريني التلكؤ**"[2]

أما عن أنوع الميثات الأمازيغية ،فيمكن الأخذ –هاهنا– بتصنيف محمد أوسوس "" **في النصوص الحكائية التعليلية الأمازيغية يمكن التمييز بين ميثات حقيقية بالمفهوم الاصطلاحي العام للكلمة، وبين ما يمكن اعتباره مجرد أساطير تفسيرية أو حكايات تعليلية والحدود بين هذه الأنواع ليست بديهية أو مرسومة بدقة**"[3]

1–**الأسطورة شكلا ما قبل مسرحي:** ومن بين هذه الأشكال :

***احتفالية "بوغنجا أو أسليث ن ونزار(بالعربية عروس أنزار)**":تتعلق بأسطورة صمدت عبر الزّمن ولاتزال خالدة في ذهنية الإنسان الأوراسي ،وهي ترتبط ارتباطا وثيقا بأحوال الطقس لمّا تجفّ الأرض فتناشد مطر السّماء من خلال مجموعة نساء وأطفال يخرجون حاملين ملعقة كبيرة (بوغنجا)مزيّنة بقطع قماش ويردّدون تضرعات غنائية:" **Anẓar aberbac lelwan,almaɣṛan yenɣa udan , AREBBI seres aman**"(أنزار بَهيّ الألوان ،**العطش قتل العباد،يارب اجعل السماء تمطر**)[4]

تاسليت نونزار فتاة أميرة خجولة وجميلة عاشقة للمياه ،أنزار إله المطر عند الأمازيغ في القديم،كانت تتردد على مياه النهر الفياض فرآها أنزار فشغفته حبا ،صارحها فصدته خوفا من سوء ظن القوم بها ، فغضب منها فأحل على تلك المنطقة الجفاف لما نضب مياه النهر وامتنع عن الإمطار .فتضرعت له بالبكاء فحن قلبه وأخذ بها بعيدا إلى السماء، وهذا ما نفسر به ظهور قوس قزح بعد كل هطول مطر نتيجة انعكاس أشعة الشمس .

تحاول الأسطورة الأمازيغية –كما ذكرنا آنفا–دائما تفسير بعض الظواهر الكونية بالملاحظة العينية بما يتواجد في الطبيعة ولهذا يرمز للأرض المتعطشة لمياه الأمطار بالمرأة الجميلة الخجولة ذلك أن هناك تزاوجا كونيا بين الأرض والمطر وهذا الأخير في الأسطورة

الأمازيغية ضروري للخصوبة **"لقد أثارت ألوان قوس قزح الزاهية،وارتباطه بالمطر واهب الخصوبة متخيل الأمازيغ،وجعلتهم ينظرون إليه على أنه نموذج العروس البشرية ذاتهانوالسيدة المنذرة للسماء،وسمته لهذا السبب باسم(لالاّ ن إكنوان)في بعض المناطق،ونسبت إليه أصل الألوان المختلفة للطيور"**[5]

***شايب عاشوراء**:مظهر فرجوي مرتبط بما هو أوراسي ضارب في القدم،ولايزال يُستعرض إلى الآن،كلّما حلّ العاشر من محرم ،جذوره تعود للقرن 10 قبل الميلاد عندما انتصر شيشنق الأمازيغي على فرعون مصر،شخوص شايب عاشوراء ثلاثة:**مرياما** وهي امرأة ترمز للأرض والعرض والشرف،**الأسد** يمثّل الملك،و**الجنود**،وهو استعراض ذو طابع احتفالي[6].

هذا الاستعراض يقام بطريقة ارتجالية والمشاركون فيه هم الجمهور المتفرج في الهواء الطلق، تتم هذه الأسطورة بوعي مشاركيها في الحفاظ على الشخصية الرئيسة "**مرياما**" التي ترمز للأرض فالكل يتسارع لحمايتها من أي خطر مجهول قد يتربص بها وهذا يتأتى من أنفة وإباء الأمازيغي الذي يقدم ما يملك من قوة حفاظا على أرضه(تامزغا) والتاريخ العريق لشمال إفريقيا شاهد على ذلك من خلال انتصاراته السحيقة على المستعمرات .

***أمدياز**:يتواجد هذا الشخص في الأسواق الشعبية ليسرد قصص الأساطير والبطولات بطريقة فنيّة ملفتة للنظر، وهذا ما يجعل التّأثير آنيا إذ تتشكّل حوله حلقة سرعان ماتنمو بوفود الناس. من بين هذه الأساطير نذكر أسطورة مسيس ن ثيسليين(خاطف العرائس)

خطاف العرايس/msissi n tiselyinتقول الأسطورة على لسان جدتي أنه

شاعت في بعض أعراس المجتمعات الأمازيغية التقليدية ظاهرة اختفاء العروس في ليلة عرسها،ماكان يبعث في أفراد عائلتي العريس والعروس انبهارا وفزعا وحيرة،يلجأ حكيم القبيلة لتهدئة روع العائلتين بسرد أسطورة مسيسي ن ثيسليين كمحاولة لتفسير هذه الظاهرة،مسيسي كما يقول هذا الحكيم طائر جميل ضخم يسرق كل عروس تفوق قريناتها في الجمال.طبعا الحكيم يعلم جيدا بأن هذا غير معقول الحدوث،هذا لأنه يستنتج بخبرته و معرفته بأمور

قبيلته أن العروس هربت مع حبيبها الذي منعت من الزواج منه،فحقنا للدماء يسرد هده الأسطورة التي تنم بحكمة أمازيغية.

2-توظيف الأسطورة في الشعر :

إنّ الأدب الأمازيغي ،مثلما أشار إليه الحسين المجاهد" **يمكن للدارس أن يستشف في كثير من الإبداعات الشعرية عناصر تلاقح بين النص الشعري والمثل والحكاية والأسطورة**[7]"

من هذه النماذج القائمة على مثل هذا التوظيف الفني للأسطورة نذكر ماذكره د.محمد جلاوي عن الأنموذج الشعر للونيس آيت منقلات المجسد في قصيدة مشهورة (ظلمتني وما أنا بظالمTesḍelmeḍ-iyi ur ḍelmeɣ)

التي يقوم نسيجها الفني على عناصر مقتبسة من أسطورة تاسليت نونزار التي تحدثنا عنها سابقا[8]

يقول لونيس آيت منقلات:

ad d-tas teslit n wenẓar
ad as-tefk i lweṛd lfuḍa-s
lebreq ad d-iwet am lefnaṛ
ad iyi-d ibeggen ṣṣifa-s
lehwa-s d-iḥeggun aẓar
nek ara tt-idyaznen fell-as
a tin mi d-zzin lenwaṛ
ad am-iliɣ d aɛessas

عروس أنزار قادمة
ستهدي للورد من منديلها الألوان
البرق يومض كالمصباح
فيبرز لي جمالها الفتان
أمطاره المنعشة للجذور
بأمري يجود بها السحاب

ياجميلةُ بين الورود
أنا في حماك قائم مهاب

استعار الشاعر هنا أبعادا أخرى من الأسطورة ليوظفها بطريقة فنية محكمة في عملية نسج صوره ، ونقصد بها مكونات تلك العلاقة الجامعة بين العاشق والمعشوق ،القائمة على مبدأ الأخذ والعطاء فلن يعم الخصب إلا إذا ارتوى قلب الإله حبا،وهذه العلاقة بكل مكوناتها الأسطورية بما في ذلك البعد الحسي لها،استنسخها الشاعر لونيس في هذا الجزء ليعبر به عن حبه إزاء الحبيبة، وتعطشه الدفين للارتواء بحسنها وجمالها.يرقى في معانيه إلى مستوى الحب الأسطوري الذي ينشده الطرفان من تناغم روحي ووجداني تحت جناح هذا الحب[9]